مقومات السياحة الآثارية بالولاية الشمالية (محلية مروي أنموذجاً)

د الأمين عثمان شعيب
كلية الآداب والدراسات الإنسانية - جامعة دنقلا

المستخلص:

يحتل السودان موقعاً جغرافياً استراتيجياً متميزاً، فهو يقع في الجزء الشمالي الشرقي من القارة الأفريقية. يعد السودان أكبر دول القارة الأفريقية مساحة وبه تباين في بيئته الجغرافية والمناخية وتتعدد موارده وثرواته الثقافية والطبيعية، كما تعددت وتنوعت أجناس سكانه وأعراقهم وثقافتهم في مجال يؤطر لوحدة التنوع الثقافي. إذن يتميز السودان بكل مقومات الدولة السياحية بموقعه الجغرافي ومناخاته المتعددة حيث وتشكل الأماكن والمواقع الطبيعية والأثرية نسبة كبيرة من مكونات عناصر العرض السياحي بل هي الأساس الذي يرتكز عليه عرض الخدمات السياحية، والسودان ذاخر وغني بالمعالم السياحية الأثرية والتاريخية الظاهرة التي تم تسجيلها ضمن قائمة التراث العالمي لدى منظمة اليونسكو لأنها استوفت الشروط والمعايير في اختيار المواقع والأماكن الثقافية في العالم. فمن أهم المواقع السياحية الأثرية والتاريخية في شمال السودان بمحلية مروي موقع جبل البركل والكرو وضم أبو دوم وأهرامات نوري وغيرها كثيراً من المواقع الصروح الأثرية والتاريخية.

Elements of archaeological tourism in the Northern State (Merowe locality as an example)

Abstract:

Sudan occupies a distinguished geographical and strategiclocation, as it is located in the northeastern part of the African continent. Sudan is the largest country on the African continent in terms of area, and it has a difference in its geographical and climatic environment, and its cultural and natural resources and wealth are numerous. The races, ethnicities and cultures of its population are also numerous and varied in a field that frames the unity of cultural diversity. So, Sudan is characterized by all the elements of the country's tourism, with its geographical location and its multiple

climates, where natural and archaeological places and sites constitute a large proportion of the components of the elements of the tourism offer. Rather, they are the basis on which the offer of tourism services is based. Sudan is abundant and rich in archaeological and historical tourist attractions that have been recorded in the World Heritage List. UNESCO because it met the conditions and criteria for selecting cultural sites and places in the world. Among the most important archaeological and historical tourist sites in northern Sudan in the locality of Meroe is the site of Jebel Barkal, Al-Kurru, the Sanam Abu Doum, the pyramids of Nuri, and many other archaeological and historical sites.

المقدمة:

تعد السياحة الآثارية كنزاً حضارياً ثميناً، شاهداً على براعة الإنسان وإبداعه في صياغة وتشكيل الحضارة الإنسانية على العصور والأزمنة (لكننا سنتناول ما يقع في حدود محلية مروي «البركل – الكرو – نوري – صنم أبو دوم، دير الغزالي، الزومة، ولكننا نركز على الأربعة الأوائل نسبة لأهميتها وما تشتمل عليه من أبنية تجذب إليها السائح).

أضحت المناطق الأثرية في عالم اليوم مورداً رئيساً للترفيه والتنزه والاستجمام ما يؤسس لتنمية سياحية تراثية مستدامة ذات منافع اقتصادية متعددة. فالمواقع الأثرية والحرف والمصنوعات اليدوية والفنون الشعبية تؤلف لوجه تجسد تفاصيل حياة الناس في الماضي ، وفي ذات الوقت أصبحت منتجاً يسوق اقتصادياً في المحافل والمهرجانات والفعاليات التراثية والسياحية دولياً وإقليمياً ومحلياً. وتعتبر المواقع الأثرية في شمال السودان بمحلية مروي من أهم المواقع الشاخصة التي تؤرخ إلى فترات تاريخية متباينة ومتلاحقة.

أصبحت السياحة من الأنشطة التي تسهم بفاعلية في اقتصاديات العديد من الدول التي اتخذت من صناعة السياحة مصدراً من مصادر اقتصادها القومي فالسياحة صناعة بلا دخان ونفايات، ثقافة بدون جامعات، وهي تمتاز بقدرتها الفائقة على تحريك النشاطات الإنتاجية والاقتصادية والاستثمارية وفق منهجية تسعى لتحقيق أهداف ومبادئ التنمية المستدامة، النشاط السياحي والترويج الإعلامي له أصبح في عالم اليوم بشكل قدراً كبيراً من اهتمامات الدول والأمم والشعوب، فهو يتميز بتأثيراته المتنوعة في مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والبيئية، صارت الدول تهتم بقطاع السياحة في تنامي وتطوير مستمر، فالسياحة توصف بأنها ضرورة عصرية حيناً وضرورة بيولوجية حيناً آخر وضرورة اقتصادية في كثير من الأحيان(محمد العطا، 2011م).

آثار التنمية السياحية المستدامة على مناطق الجذب السياحي الثقافي:

يمكن للتنمية أن تكون سبباً في البقاء على مناطق الجذب السياحي الثقافي وتوفير التمويل للحفاظ عليها فإنها يمكن أن تتسبب في تدهور هذا التراث وتدميره، وهنا يمكن التحدي بين

السياحة والتراث الثقافي، حيث يمكن اعتبار السياحة سلاحاً ذو حدين كما أشارت بذلك منظمة اليونسكو، ويرى الباحثون وجود آثار إيجابية للسياحة على مناطق الجذب السياحي من خلال توفيرها فوائداً للمجتمعات المحلية والسلطات الحكومية، ومن ثم العمل على الحفاظ عليها في سبيل تلبية متطلبات السياح، بينما يركز باحثون آخرون على الآثار السالبة للسياحة تبعاً للسياحة الكثيفة التي يتم جذبها والتي تتطلب تسهيلات وخدمات يمكن أن تؤثر سلباً على خصائص التراث الثقافي(جمال جعفر، 2009م).

المباني التراثية والحفاظ عليها:

تتيح مشاريع التنمية السياحية المستدامة توظيف المباني التاريخية باستخدامات جديدة توفر مدخلاً يمكن استغلاله في ترميم وصيانة هذه المباني وحمايتها من الضياع والتدهور، كما اشتملت عليه المعاهدات الدولية للحفاظ على التراث العمراني(Lea. I. 1992). مع الاهتمام المتزايد ونمو السياحة الثقافية تصاعدت النظرة الإيجابية لآثار السياحة المستدامة الإيجابية، وأصبح ينظر إليها كوسيلة للحفاظ على الماضي بتوفير التمويل الضروري لإعادة تأهيل الموارد التراثية والتدخل فيها، والاهتمام بالقيم الثقافية المعرضة لخطر الزوال وإعطاء المباني التاريخية والتراثية قيمة اقتصادية لتسويقها لفت الاهتمام للحفاظ عليها. فمشروعات التنمية السياحية المستدامة يمكن أن تعمل على تحسين صورة منطقة الجذب السياحي الثقافي عند إيجاد خدمات سياحية ذات طابع تراثي مميز. فهي تؤدي إلى زيادة الاهتمام بشبكة الطرق في سبيل تأكير تجربة سياحية جديدة للسياح، ما يعمل على حل مشاكل الطرق التي عادة ما تعاني منها مراكز التراث الثقافي(نسرين لحام، 2007م). كما يصاحب مشروعات السياحة المستدامة لمناطق الجذب السياحي في كثير من الأحيان تحسين أنظمة الصرف الصحي وشبكات المياه.

السياحة في السودان:

السودان كقطر من أقطار العالم حباه الله سبحانه وتعالى بالعديد من أماكن الجذب السياحي تتباين في الكم والكيف وتتوزع توزيعاً جغرافياً على مساحة تمتد عبر الآلاف الأميال المربعة. وعليه يمكن في ضوء التخطيط السليم والاستثمار والتسويق في صناعة السياحة يمكن أن ينهض به في قائمة الدول المصدرة للسياحة. ويعتبر التخطيط السياحي شكلاً فاعلاً من أشكال التخطيط الاقتصادي والاجتماعي ويعتبر المكان هو العنصر الأول في هذا التخطيط كما أن النقل والإقامة يشكلان عناصر مساعدة وذلك باعتبار أن المكان هو السلعة المباعة الذي يعرض ما يحتويه من عناصر جذب سياحي(منى عبد اللطيف، 1989م). ومن ذلك ندرك أهمية التخطيط السياحي ودوره في المحافظة على مستوى الأمكنة السياحية والتي تشكل المواقع السياحية الأثرية أحد مرتكزاتها إلى جانب الأنواع والأنماط الأخرى بحكم السياح كونها أحد روافد السياحة الثقافية.

منظمة اقتصاديات السودان تعتمد بشكل رئيس على الاقتصاد الزراعي والاقتصاد الرعوي أو الثروة الحيوانية هذا بالإضافة إلى البترول ومشتقاته وكذلك تجارة الخدمات. ويمكن التنوع وتعدد

موارد السياحة الثقافية والطبيعية في السودان أن يشكل رافداً ومورداً غير تقليدي يعزز ويقوي القاعدة الاقتصادية في السودان، فالسياحة من منظور اقتصادي واجتماعي يمكن أن تسهم بشكل فعال في زيادة الناتج القومي الإجمالي إذا ما تم الالتفات والنظر إليها بشكل جاد ومسئول وفق رؤية ومنهجية علمية واضحة ومحددة تعمل على تحقيق الاستقرار في حركة الاقتصاد السوداني الذي يواجه العددي من التقلبات. بالرغم من أن السودان وحسب تصنيف منظمة السياحة العالمية (WTO) يحتل المرتبة العاشرة دولياً في مجال الموارد السياحية الطبيعية والثقافية إلا أن الالتفات لإمكانية تطوير وتنمية هذه الموارد والتي تشكل مقومات هائلة للجذب السياحي لم يرق إلى المستوى المطلوب. فالمأمول توظيف هذه الموارد الاقتصادية في مجال الصناعة السياحية والاستثمار السياحي بغرض المساهمة في توسيع مداخل الاقتصاد الوطني والنهوض به، ودفع عجلة التنمية في البلاد من خلال توفير فرص العمل وتحجيم البطالة وذلك خدمة للمجتمع وتحسيناً للدخول(كباشي حسين، 2012م).

نشأة السياحة في السودان:

بدأت السياحة في السودان في منتصف القرن العشرين وكان عن طريق القطاع الخاص الذي قام بإنشاء بعض الشركات والوكالات السياحية مثل وكالة السياحة السودانية وهي من أوائل الوكالات التي وضعت اللينات السياحية الأولى في السودان وبمشاركة وكالة ميخالوس ووكالة الشرق الأوسط العالمية، وكانت هذه الشركات والوكالات تعني بتشييد القرى السياحية وتسويق الجوانب السياحية إلى الخارج بواسطة الترويج، وقد استفاد القطاع الخاص في تجاربه التنموية(مؤتمر قطاع السياحة، 2017م).

شهد السودان نشاط واسع في سياحة المخيمات والرحلات للمجموعات وأدى ذلك إلى تنمية السياحة وتدفق السياح على السودان مما ترتب على ذلك أثار اجتماعية واقتصادية وإعلامية، وواجب على الدولة تسهيل التراخيص لتكون الشركات والوكالات وطلبات وتأشيرات الدخول والخروج للسياح وتوثيق المواقع السياحية وطبيعة السياح وتأثيرهم على أمن الدولة، وهنا أدركت الدولة أهمية النشاط السياحي فقامت عام 1959م بإنشاء جهاز السياحة بوزارة الاستعلامات والعمل، وكلف الجاهز بوضع تصور لتأسيس العمل السياحي وإجراء المسوحات السياحية، لتحديد أولويات العمل حيث قامت هيئة السياحة والفنادق بوضع الخطط السياحية ولكن يعاب عليها أنها اقتصرت على جانب العرض دون التطرق للطلب، وعدم اهتمامها بإحصائيات السياحة الداخلية، وعدم خضوعها لدراسة تحليلية تفيد في الاتجاه السياحي في السودان، ووضع نمط وشكل السياحة على ضوء ذلك ونسبة لأن الخبرة الأجنبية تلعب دوراً هاماً في التنمية السياحية فقد استعانت هيئة السياحة والفنادق بعدد من الخبراء لإجراء بعض الدراسات والمسوحات منهم مستر فوكس واستيفن استيتر ومفن وجون هوكس(المسح الشامل لولاية الخرطوم، 1997م).

لقد اتفق الخبراء والمختصين في تقاريرهم أن السودان ذو مقومات سياحية مقدرة ومتنوعة في جميع أنحائه ويمكن بالقليل من الاهتمام أن تجلب البلاد كثيراً من العملات الأجنبية وزيادة الدخل القومي.

الموارد السياحية الثقافية:

منذ الآلاف السنين شكل السودان معبراً ثقافياً وتجارياً مهماً بين الحضارات في عالم البحر الأبيض المتوسط وآسيا وأفريقيا، فقد دلت البحوث والدراسات الأثارية بأن السودان يعد أحد المعابر الثقافية والفكرية في التاريخ الثقافي الإنساني مما حدا بعالم الآثار وليام آدمز أن يكتب سفراً فخيماً في العام 1977م موسوماً بعنوان: (النوبة رواق أفريقيا) فالنوبية ما هي إلا تجسيد للسودان كله حضارة وثقافة.

إن موقع جمهورية السودان الجغرافي المتفرد، والحراك البشري بأبعاده الفكرية والثقافية الذي شهدتها أرضه عبر حقب تاريخية طويلة وثرة جعلته واحداً من أغنى دول القارة الأفريقية في مجال التراث الأثري والأثنوغرافي، كما دلت على ذلك المسوحات والتنقيب الأثري الذي أجري في السودان. حيث أشارت هذه الأعمال الأثارية على أن السودان يتمتع بثروة تاريخية وثقافية وفنية في غاية من الأهمية في التاريخ الحضاري الإنساني بصورة عامة وفي التاريخ الأفريقي على وجه الخصوص، حيث شهدت وساهمت أرضه وإنسانه دون انقطاع في تشكيل هذا التراث الحضاري بمكوناته المختلفة منذ فجر ما قبل التاريخ حتى دخول الإسلام، فآثار الحضارات السودانية الخالدة ترمز وبقوة على التواصل الثقافي والتسلسل التاريخي للحضارة السودانية. فالسودان غني جداً بموارد سياحية وثقافية تتجسد في العديد من المعالم والموارد الثقافية والتي يمكن إجمالها في الآتي:

1. المواقع والمناطق الأثرية.
2. المتاحف.
3. معالم التراث العمراني والمباني التاريخية والتراثية.
4. التراث الشعبي (الفلكلور).

الخدمات والتسهيلات السياحية:

السودان غني بموارده الثقافية والطبيعية والتي تشكل العمود الفقري للثروة السياحية، كما تشكل أيضاً قاعدة أساسية للتنمية السياحية إذا ما توفر البعد والمكون الأخر لصناعة السياحة والمتمثل في الخدمات والتسهيلات السياحية، فالبنية التحتية تمثل الركيزة الأساسية في عملية تطوير وتنمية السياحة، حيث تحتاج المناطق السياحية إلى بنية تحتية شاملة ومتكاملة، كما أن صناعة السياحة الناجحة تتألف من تضافر وتكامل كل من موارد الثروة السياحية (المقومات الطبيعية والثقافية) والخدمات والتسهيلات السياحية(فؤاد رشيد، 2001م).

تمثل الخدمات والتسهيلات السياحية رأس الرمح في العملية السياحية وهي تشمل الخدمات والإقامة والإعاشة، وخدمات النقل والمواصلات، وخدمات الاتصالات بالإضافة إلى خدمات الأمن والسلامة. فيتمتع السودان بالعديد من عناصر ومقومات الخدمات والتسهيلات السياحية التي تعد أكثر الوسائل المؤثرة في اجتذاب رؤوس الأموال في الاستثمار السياحي(نسرين لحام، 2007م).

السياحة الأثرية السودانية:

تعد السياحة التراثية كنزاً حضارياً وشاهداً على براعة الإنسان وإبداعه في صياغة وتشكيل الحضارة الإنسانية على مر العصور والأزمنة. فالمناطق التراثية أصبحت في عالم اليوم تشكل مورداً رئيسياً للترفيه والتنزه والاستجمام ما يؤسس لتنمية سياحية تراثية مستدامة ذات منافع اقتصادية متعددة. فموارد ومعالم السياحة الثقافية تسهم بفاعلية في تغذية وإنماء روح الانتماء والهوية للشعوب بتمسكها بتراثها الذي لا تود أن تنفصل أو تنفك عنه(عباس سيد أحمد، 2022م).

كما أن انتقال السياح والزوار من بلد إلى آخر بحثاً عن المعالم التراثية والثقافية يمكنهم من التعرف على تراث الأمم وعاداتها وتقاليدها، وهذه المعارف تساعد على فهم الآخر. وتسهم في خلق روح التسامح والاحترام وإحلال التفاهم والصداقة، توطيد أركان السلام بين الشعوب عندما يكون التراث رمزاً للأمة وكيانها وجوهر ما تقدمه للزوار والسياح، فأمر الحفاظ عليه وحمايته يشكل تحدياً حقيقياً(أشرف صبحي، 1999م).

هنالك العديد من المواقع الأثرية والتاريخية في السودان التي تعتبر من أهم المناطق الأثرية الشامخة التي تؤرخ إلى فترات تاريخية متباينة، الحضارة الكوشية وإقليم نبته والحقبة المروية.

وتشكل السياحة الأثرية السودانية إحدى أنواع الوعي الحضاري الذي يعكس مدى ما وصلت إليه الأمم والشعوب من رقي وتقدم، وتلعب الآثار دوراً مركزياً مهماً في السياحة السودانية، وذلك بتوظيف المناطق الأثرية والتاريخية المحافظة على الإرث الثقافي.

وتعكس حركة السياحة الآثارية وعائدها المادي جزئياً على ترميم وصيانة المناطق الأثرية والمباني التاريخية في السودان، والملاحظ أن جميع المواقع الأثرية على نطاق السودان لم تنل ما تستحق من عناية على مستوى الحفظ والصيانة ناهيك عن استغلالها سياحياً، ولا يعرف عنها الكثير. فاستغلال المواقع الأثرية والتاريخية والمحافظة عليها يعطيها أهمية دون استثناء.

إن السياحة الأثرية في السودان لم يتلفت إليها إلا في السنوات الأخيرة وتعد قليلة على الرغم من انتشار المواقع التي تمثل مصادر جذب سياحي ومورد مهم وقبلة للسواح الأجانب والمحليين، بعد ذلك تحتاج إلى الترويج الإعلامي على المستوى الخارجي والمحلي. يمكن القول أن المناطق الأثرية في السودان تمثل تراثاً ثقافياً مهماً وذات بعد سياحي كبير ومن الواجب أن تتضافر الجهود من أجل المحافظة على الآثار وحمايتها وصيانتها وتأهيلها، وهذا يتم عن طريق الاستثمار في هذا المجال(عفراء عثمان، 2010م).

إمكانات ومقومات السياحة الأثرية في السودان:

تمثل مواقع التراث الأثري رمزاً للأمم والشعوب، لهذا قد سعت العديد من الدول للاهتمام بها والمحافظة عليها ومن ثم توظيفها اقتصادياً في عملية الجذب السياحي، وفي هذا السياق

فالسودان ليس استثناءً ويمكن الاستفادة من مواقع التراث الأثري التي تنتشر في جميع مناطق ولايات السودان المختلفة.

تتمثل المواطن الأثرية من المدن المطمورة والظاهرة على السطح، وما استطاعت يد الإنسان أن تصغية في فترات وأزمان العصور من أدوات وقيم مادية وفكرية، ونقول أن هنالك مواقع أثرية هامة توجد في حدود السودان الشمالية حيث القبائل النوبية السودانية ولكن نتيجة لإنشاء السد العالي في جنوب مصر فقد غمرت المياه المواقع الهامة 1964م وتم نقل القطع الأثرية الهامة إلى متحف السودان القومي بالخرطوم، وأعيد ترميمها. وهذه المعابد: هي معبد عكاشة ومعبد بوهين ومعبد سمته غرب ومعبد سمته شرق ومقبرة الأمير حجو وأعمدة فرس.

من أهم مواقع السياحة الأثرية السودانية في منطقة الدراسة هي: معابد وأهرامات البركل ومدافن الكرو ونوري ومدينة صنم أبو دوم. هذا إلى العديد من المباني التاريخية والتراثية كالقصور والمدن والأديرة والكنائس والمساجد والخلاوى والتراث الشعبي لدى الإنسان في الصور السابقة واللغات التي كانت سائدة لديهم. والسؤال الجوهري والأهم هو كيفية توظيف معالم وموارد التراث سياحياً باعتبار أنها كنز معرفة ضخم ورمز وطني يؤثر وقوة اقتصادية كافية يمكن أن تلعب دوراً فعالاً في تنمية الاقتصاد الوطني وتطوير أوجه الحياة الاجتماعية والثقافية في السودان.

أهم المواقع والمناطق الأثرية والتاريخية والتراثية بالولاية الشمالية (محلية مروي):

1. مجمع البركل الحضاري:

عرف جبل البركل قديماً بالجبل **المقدَّس أو الطاهر** «جو - وعب» في اللغة المصرية القديمة ، ويقع على الضفة اليمنى للنيل بالقرب من مدينة كريمة ، وتنبع أهميته من احتضانه عدد كبير من المعابد أهمها معبد آمون الكبير (B.500) والذي بدأت المرحلة الأولى من تشييده زمن الدولة المصرية الحديثة ، واكتمل في عهدي الملكين الكوشيين بيي وتهارقا(Shinnie.1967). ويعتبر جبل البركل المسكن القديم لإله كوش «ديدون» وهذا يؤكد على أن هذا الجبل كان مقدَّساً منذ وقت طويل قبل قيام دولة كوش الثانية ، فقد كان مسكناً للإله آمون منذ عصر الدولة المصرية الحديثة(Reisner,1917) ، ربما بُني هذا المعبد في عهد الملك ستي الأول (1318-1298 ق.م)، (انظر الصورة رقم 1).

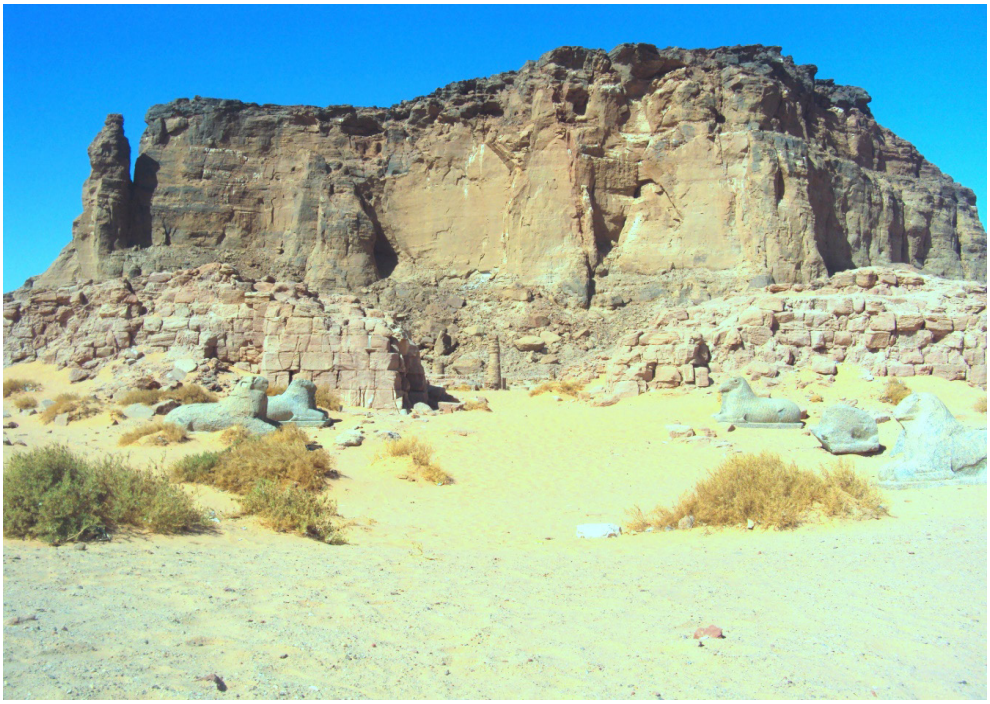

الصورة رقم (1) تبين الجبل المقدس يحتضن المعابد التي أنشأت حوله (تصوير الباحث)

عُثر في تلك المعابد وبالقرب منها على العديد من التماثيل للملوك الكوشيين : بيي (747-716ق.م) تهارقا (690-664 ق.م) تانوت أمني (664-653 ق.م) أسبلتا (593-568 ق.م) ونتاكاماني وغيرهم، كما وجدت نقوش يرجع تاريخ أقدمها إلى عصر حكم الأسرة الثامنة عشرة، ومن بين تلك النقوش مسلة تحتمس الثالث التي تكمل حولياته، إضافة لمسلة الأمير خاليوت بن بيي، ما يمكن عدَّها من بين أهم المصادر التاريخية[أيسيدور كاتسنلسون، 2001م].

يأخذ معبد آمون بجبل البركل هيئة المستطيل الذي يتألف من قاعات وردهات ذات أعمدة طويلة تمتد في صفين ، وقصد بذلك أن يكون ممتداً من الشرق إلى الغرب مع غرفة للعبادة في الطرف الغربي، أما الطول الكلي للمبنى في صورته النهائية فقد بلغ 500 قدماً تقريباً، أي أكبر من أي معبد مصري معاصر له عدا معبد الكرنك. لحقت به إضافات عديدة في الأزمان النبتية والمروية. كان المعبد العظيم لآمون في جبل البركل كما في الكرنك المعلم المركزي الوحيد لمركب ديني أكبر تعقيداً، ربما معها عدد من المباني غير الدينية بالمثل بني اثنان من المعابد الأصغر التي يعود تاريخها إلى الأسرة الخامسة والعشرين – مباشرة في مواجهة القمة – وكانت غرف العبادة مشتقة

داخل الصخر بين أعطاف الجبل المقدَّس نفسه، وتمت صيانة معبدين من أصل نبتي وتوسيعهما إبان الفترة المروية، أما معظم المعابد الثانوية فقد احتوت على غرفتين أو ثلاثة غرف، ولم يكن لأي واحد منها حجم يقارن ولو من بعيد بحجم المعبد العظيم لآمون(آدمز، 2005م).

بقيام مملكة نبتة وتدرج تاريخها بدأت مرحلة جديدة في بناء المعابد في منطقة نبتة. من الواضح أن فن بناء المعابد بدأ من جديد في عهد الملك بيي ، وقد كان هذا الفن أحد الفنون التي نقلها بيي إلى نبتة إثر عودته من مصر ، كما أعاد بناء وتوسيع معبد جبل البركل (B.500)(كندال، 1996-1998).

بدأت فترة النشاط المعماري الواسع بوصول تهارقا إلى الحكم في 690ق.م وقد اعتبره كثير من المؤرخين معمارياً من الدرجة الأولى. اهتمَّ تهارقا مثل سابقيه بماضي مصر، وعبَّر عن هذا الاهتمام بصورة واضحة ببناء المعابد وإصلاح القائم منها سواء كان ذلك في مصر أو بلاد كوش، إلاَّ أنَّه ركَّز بصورة واضحة على بلاد كوش، وبدأ نشاطه أولاً في جبل البركل حيث بنى المعبد الثاني للإله آمون والإلهة موت، وقطع قدس الأقداس في الصخر ربما كان يوجد رواق يقوم على أربعة أعمدة، زُيِّن تاج كل منها برأس الإلهة حتحور(Budge, 1907) (انظر الصورة رقم 2).

صورة رقم (2) تبين الأعمدة الحاتحورية (تصوير الباحث)

لم تشهد بلاد كوش نشاطاً معمارياً واضحاً بعد عهد تهارقا حتى نهاية الفترة النبتية ، وقد ذكر تانوت أمني في لوح الحلم أنه أمر ببناء قاعة جديدة للإله آمون في نبتة بصورة لم يسبقه

إليها أحد من أسلافه ، كما ينسب إلى تانوت أمني إضافة مزار واحد إلى قاعة الأعمدة في معبد آمون الكبير بجبل البركل . تمتاز آثار جبل البركل بقدر كبير من الأهمية؛ لأنها توضح كيف وجدت الحضارة المصرية قبولاً ملحوظاً في كوش، وكيف عزز وجودها الملوك الكوشيون في بلادهم، وكيف أن كهنة آمون نجحوا - ليس في إدخال دينهم فحسب- بل أنهم جعلوا الملوك الكوشيين يقبلون على النحت والفن وما يتبعهما من فنون وعادات مصرية(نعمات عمر، 1989).

ظل معبد آمون بجبل البركل أهم معابد كوش على الإطلاق؛ حيث كانت تتم فيه طقوس تتويج الملوك في الفترة الأولى من عصر الدولة الكوشية، وحتى عندما تدهورت مكانة نبتة السياسية ونقلت العاصمة إلى مروي ظلَّ معبد جبل البركل محتفظاً بأهميته الدينية، وكان الملوك المرويون يقومون برحلات التتويج إليه ، ويعتبرون زيارته جزءاً عظيم الأهمية من مراسم التتويج(Reisner, 1917). هذا بالإضافة لاحتضان جبل البركل عدداً من المعابد الثانوية التي كرِّست لعبادة آلهة أخرى مثل المعبد (B.200) الذي كرِّس لعبادة حتحور وتفنوت وإيزيس(Dunham, 1970)، والمعبد (B.300) الذي يرجع بنائه لفترة حكم الملك تهارقا ، والمعابد (B.600) والمعبد (B.700) والمعبدين (B.800) و(B.900).

يضم سفح جبل البركل مجموعتين من الأهرامات بنيت في جهتي الغرب والجنوب الغربي من الجبل، ووجود هذه الأهرامات التي تنتمي إلى فترتين مختلفتين من عمر الدولة في هذا الموقع يؤكد استمرار قدسيته وأهميته الدينية والسياسية.

صورة رقم (3) أهرامات البركل، تصوير الباحث

بنيت على مقربة من المعابد بعض القصور الملكية منها القصر (B.1200) الذي يرجع تاريخ تشييده لعهد الملك بيي ، وقد تم ترميمه لاحقاً من قبل الملكين أنلاماني وأسبلتو، وفي مرحلة ثالثة في عهد الملك حارسيوتف. كانت تلك القصور دليلاً على استمرار إقامة الملك في نبتة(سامية بشير، 2005م). كانت القصور النبتية تبنى في الجهة اليمنى من معبد الإله آمون ، بينما بنيت القصور المروية كقصر الملك نتك أماني في الجانب الآخر(Kendall. 1996).

صورة رقم (3) تبيِّن القصور النبتية حول جبل البركل، تصوير الباحث

عليه، فإن مجمع البركل الحضاري والذي تم وصفه وتاريخه أنه يمثل ركيزة سياحية يقصدها الزوار من خارج وداخل السودان، من خارج السودان تلك الوفود التي تقصده للوقوف على شكله المخوطي والتعرف على المعابد شادها الملوك أمثال بيي وتهارقا وخصوصاً المعبد الذي بناه الملك تهارقا وأهداه للإلهة موت زوجة آمون والمقطوع قدس أقداسه في الصخر. هذا إضافة إلى الزيارات التي يقوم بها السكان المحليين لمجمع البركل والزيارات التي يقوم بها طلاب العلم متمثلة في الرحلات العلمية لكليات الآداب والتربية التي تقوم بتدريس مادة التاريخ القديم للوقوف على ما درسوه نظرياً. هذا بالإضافة إلى المهرجان الذي قام لفترة (مهرجان جبل البركل) الذي أسهم بصورة فاعلة في تنشيط السياحة وجعله قبلة السياح الأجانب على وجه الخصوص.

مدينة صنم أبو دوم:

تقع مدينة صنم أبو دوم بشمال السودان بالقرب من مدينة مروي الحديثة على بعد مسافة قصيرة من جبل البركل(الجبل المقدَّس) على الضفة اليسرى للنيل، ويعتقد بعض الكتاب أمثال شيني أن مدينة نبتة عاصمة المملكة كانت تقوم في هذا الموقع. أجرت التنقيب فيها بعثة جامعة ليفربول بقيادة الآثاري الإنجليزي جريفث الذي حدد موقع المدينة القديمة بمسافة كيلومتر واحد من النيل من ناحية، وبمسافة مماثلة إلى الشمال من الجبانة التي تقع على الحافة الصحراوية، وعثر في الموقع أيضاً على معبد قام ببنائه الملك تهارقا وأهداه للإله آمون ثور تاسيتي.

حول المدينة:

يوحي الخيال لكتاب عديدين أن صنم ربما كانت موقع المدينة الرئيسة لنبتة والمقر الملكي، فتكريس معبد لآمون بها يعد تبياناً كوشياً أكثر منه تجسيداً لإرادته الشاملة، ويقترح جريفث أن هذا المبنى في إحدى تجلياته دار عبادة للأسرة المالكة، لا تخضع لسيطرة الكهنة الراسخة في جبل البركل . إن الفصل الطبيعي بين النقطتين – المقدسة وغير الدينية – على جانبين متقابلين من النهر، ربما كان ضرورياً لمنع تولد الشرر الناتج عن الاحتكاك اللصيق بين السلطتين، هنالك بالطبع إيحاء يمثل هذا الصراع في ألواح الملك أسبلتا، إذْ مسح الكهنة احتقاراً اسم الملك من واحد منها(آدمز، 2005).

معبد الإله آمون الذي شيده الملك تهارقا:

شيد الملك تهارقا هذا المعبد مباشرة بعد الانتهاء من بناء معبده في الكوة، أي في العام العاشر من حكمه، وقد استفاد الملك من تجربته في بناء معبد الكوة، إذ يلاحظ التشابه بين المعبدين. يتكون المعبد من بنائين مستطيلين، الأول منهما عبارة عن قاعة أعمدة، أما الثاني فهو عبارة عن القاعة التي يوجد خلفها قدس الأقداس، وعدد من الحجرات الإضافية، والتي يتم الدخول إليها عن طريق البوابة الثانية(Griffith, 1922).

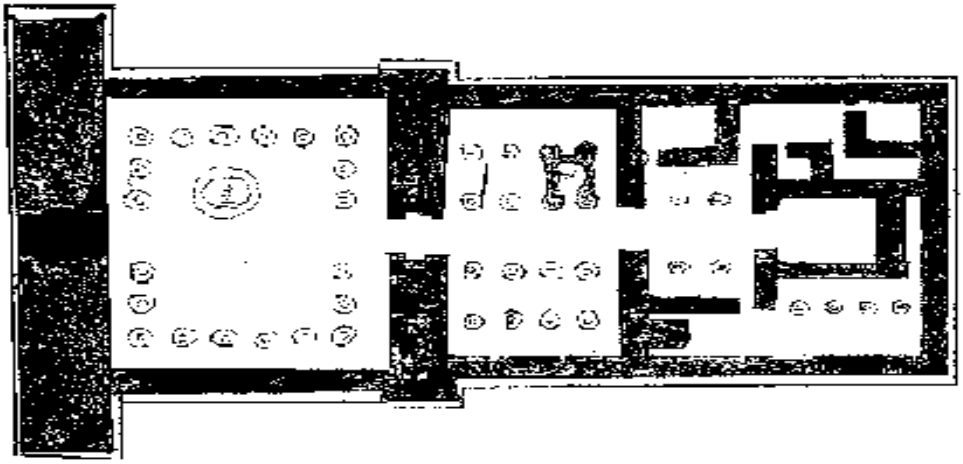

رغم أن معبد صنم أبي دوم يشبه معبد الكوة إلا إنه يوجد بينهما اختلاف أساسي يتمثل في وجود بوابتين في معبد صنم أبي دوم، ونجد اختلاف آخر في وضع السلم وفي مكان المحراب.

معبد صنم أبو دوم بحالته الراهنة، تصوير الباحث

خلت بوابة معبد صنم أبي دوم من وجود أي نوع من الهياكل أو التماثيل أمامها، كما خلت من أي دليل على وجود سور، وما تم العثور عليه من تماثيل أو نصب تذكارية ربما كان بعضها أقدم من عهد الملك تهارقا. ومن اللقى الآثارية التي تم العثور عليها خرطوش كُتب عليه إسم الملك بيي والإلهة حاتحور وشعار توحيد مصر العليا ومصر السفلى، مما يقودنا إلى افتراض وجود معبد قديم في نفس المكان أو بالقرب منه، أوأن هذه الأشياء قد تم نقلها إلى المعبد من مكان ما في وقت لاحق.

استمر تقليد إصلاح وترميم المعابد أو الإضافة إليها عند ملوك الأسرة الخامسة والعشرين، وقد سار خلفاء هؤلاء الملوك فيما بعد في نفس الإتجاه، فقد قام اسبلتا بعد قرن من الزمان ببناء مقصورة في الركن الجنوبي الشرقي للقاعة (K) التي بنى الملك تهارقا محرابه فيها، كما أضاف مصلى آخراً في النصف الجنوبي لحجرة القرابين. وبعد إضافات الملك أسبلتا أضاف الملك سنكامنسكن بناء بقيت منه بعض البقايا المتناثرة في مدخل المعبد، ولكن للأسف ليس معلوم على وجه الدقة حقيقية هذا البناء، تم العثور أيضاً في هذا المعبد على نقشين لملكين آخرين(شعيب، 2022م).

أهدى الملك تهارقا هذا المعبد للإله آمون والإلهة موت زوجته وابنهما خنسو، وقد ذُكرت أسماء آلهة اخرى، مثل حورس المنتقم لأبيه، والإلهة سخمت، إلا إن الآلهة الاوائل يظلون هم الآلهة الرئيسيون في المعبد.

وجدت في معبد صنم مجموعة من الأسماء الملكية مثل بيي، شبكو، أتلانيرسا، سنكامنسكن، وأسبلتا، لذلك يرى جريفث أن تاريخ بناء هذا المعبد يعود إلى نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، وبداية القرن السادس الميلادي(Griffith, 1922).

نتيجة للدمار الشديد والإهمال الذي أصاب معبد صنم أبو دوم منذ وقت مبكر، تعرضت المصورات في جدرانه للتلف، ولم يعد من الممكن تصور الهيئة التي بدأت فيها.

المدافن بمدينة صنم أبي دوم:

تم الكشف عن ما يزيد عن 1050 قبراً في موقع صنم أبي دوم في الجبانة الخاصة بعامة الشعب، فقسمها جريفث إلى ثلاثة أنواع:

- النوع الأول: غرف للقبور ذات مدخل له سلالم إما محفورة في شكل كهوف في في الطمي أو مسورة ومعروشة بالطوب، كل الجنائز كانت محنَّطة، وبالقبور أثاث جنائزي عبارة عن فخار مصنوع بالعجلة.
- النوع الثاني: الدفن الممدد في حفر مستطيلة صغيرة، توضع فيها الجنائز على ظهورها ويوجه الرأس ناحية الغرب، وكان القبر فقير جداً من حيث الأثاث الجنائزي المصاحب للميت، فإن وجد فهو عبارة عن أواني فخارية من الطراز المصري.
- النوع الثالث: دفن عن طريق حشر الأموات في غرف مستطيلة أو بيضاوية الشكل يرقد فيها الميت على أحد شقيه في شكل مقرفص(آدمز، 2005).

القصور:

المباني التي أسماها جريفيث بالقصور جلها مبنية من اللبن، بها أعمدة من الحجر الرملي، اتضح ومن خلال العمل الميداني لجامعة كاسينو الإيطالية التي تعمل بالموقع بقيادة إيرينا أن هناك عدد من الغرف عددها حوالي 16 غرفة، بالغرفة الواحدة 67 عموداً، ويدل ذلك على أن هذه الغرف كانت كبيرة الحجم، نستنتج من ذلك أن هذه المباني كانت ذات استخدامات متعددة، إذ أنها استخدمت كمباني للتبادل السلعي وذلك من خلال وجود العديد من المصنوعات المحلية والمستوردة بكميات مهولة، فتم في هذه المباني العثور على العديد من الأختام التي تخص حكام مملكة كوش، وعلى سبيل المثال وجد خاتم للملك أنلماني.

صورة للقصور بمدينة صنم أبو دوم، تصوير الباحث

عليه يمكننا القول أن مدينة صنم أبو دوم هي واحدة من المدن القلائل التي اشتملت على عدد من الصروح والأبنية الحضارية متمثلة في المعبد الذي شاده الملك تهارقا وبناه من الحجر الرملي، إضافة عدد من القصور متوزعة على امتداد حدود المدينة واحتوائها على غرف بها أعمدة من الحجر – كما في الثورة أعلاه. بالإضافة إلى المدافن التي تعددت وتنوعت من حيث الشكل والمضمون... كل هذه الصروح جعلت من صنم قِبلة للسياح من خارج وداخل السودان.

جبانة الكرو الملكية:

تقع قرية الكرو على الضفة اليمنى للنيل على بعد نحو عشرين كيلومتراً إلى الجنوب الغربي من جبل البركل، ولم يأت ذكر لهذا الاسم في أي من المصادر التي سبقت ظهور الأسرة الخامسة والعشرين. وليس بالقرية أي معالم أثرية يعود تاريخها إلى أبعد من تاريخ أسلاف ملوك الأسرة الخامسة والعشرين(العباس وعبد القادر، 2010). ومما يؤسف له أن الكرو – في غير مقابرها – لم تحظ بتنقيب جاد للبحث عن آثار، وحتى يتم ذلك يرى عمر حاج الزاكي أن الملوك الأوائل عاشوا حيث دفنوا ، فمن المحتمل أن أسلاف بيي نزحوا من مروي إلى الكرو، وظلَّ النازحون على صلة بجذورهم الأسرية مثلما يتكرر في سودان اليوم من استمرار للعلائق الأسرية بين من نزحوا من الإقليم الشمالي إلى مدن السودان الأوسط وذويهم في الشمال، علماً بأن أسماء بعض من قبروا في الكرو قد وجدت في مقبرة البجراوية الجنوبية، ومن تلك الأسماء كاشتا وبيي(عمر حاج الزاكي، 2006).

اضطلع لبسيوس بأولى الدراسات في هذه الجبانة عام 1844م، وبالرغم من عدم اكتمال الخريطة التي رسمها لهذا الموقع إلا أنها توضح أهمية هذه الجبانة، وقد أجرى رايزنر حفريات

بها في عام 1919م، في الواقع ، كان رايزنر قد قلل من أهمية الموقع في بداية الأمر أثناء عمله في المنطقة في الفترة بين (1916-1920م)، وهو آخر المواقع التي جرى تنقيبها في الإقليم. أدى- دون شك – الاختفاء الكلي تقريباً للجزء العلوي من هذه القبور إلى تقليل رايزنر من شأن هذا الموقع، غير أن أهميته ظهرت باكتشاف قبور الأسرة الخامسة والعشرين، بذلك وجد رايزنر نفسه مجبراً على الرحيل عن جبل البركل إلى منطقة الكرو حيث أقام معسكراً جديداً ليشرف بنفسه على الحفريات. يوجد الموقع على هضبة صخرية جانبها الغربي منحدر بشكل واضح بخلاف جانبها الشرقي الذي يتميز بانحدار خفيف يميل نحو الشرق(علي قسم السيد، 2017).

تتكون جبانة الكرو من هضبة مقسَّمة بفعل الواديين اللذين يشقانها إلى ثلاثة أقسام، ويبدو أن الدفن في هذه الجبانة قد مرَّ بأربع مراحل، فقد كانت قبور الأسلاف عبارة عن أكوام ترابية دائرية الشكل تعلوها حفرة بيضاوية أو دائرية أضيف إليها في وقت لاحق سور في شكل حدوة الحصان، وإلى جانب البناء فوق سطح الأرض في بعض مدافن الأسلاف يلاحظ أن بعضها احتوى على مقصورات جنائزية بنيت من الطوب اللبن كما في القبر (Ku.tum.1). وقد بنيت هذه المقصورات في الجانب الشرقي، وهنا لابدَّ أن نذكر أنه على الرغم من أن مدافن الأسلاف قد تعرَّضت خلال الحقبة الطويلة التي مرَّت عليها إلى عمليات مستمرة من النهب، إلاَّ أنها كانت تحمل تشابهاً واضحاً مع حضارة المجموعة (ج)، فتقليد بناء هذه المقصورة سبق أن ظهر في آخر فترة حضارة المجموعة (ج) حيث بنيت حجرات مستطيلة من اللبن في الجانب الشرقي لتوضع بداخلها القرابين(Dunham, 1953,. Adams, 1984).

صورة جوية لجبانة الكرو الملكلية توضح كل معالم الجبانة، تصوير الباحث

إن الكيفية التي اتبعت في طريقة بناء مدافن الكرو الأولى، والعادات الجنائزية التي مارسها الزعماء الأوائل الذين دفنوا هناك كانت امتداداً للعادات الجنائزية التي كانت سائدة في الحضارات الكوشية القديمة خاصة حضارة المجموعة (ج) في النوبة السفلى وحضارة كرمة في النوبة العليا، خاصة عادة الدفن على عنقريب(Arkell, 1961). وكان اتجاه الدفن في القبور الأولى في الكرو «شمال جنوب» لم يكن تقليداً مصرياً، مما يدل على أنهم كانوا متمسكين إلى حد كبير بالتقاليد المحلية في الدفن، فالاستمرار في مثل هذه التقاليد أو العادات ربما يؤكد أهميتها المحلية واستمرارها لأمد طويل(Trigger, 1967). تحولت البنى العلوية في هذه الأضرحة التلية منذ وقت مبكر إلى بنى عليا مستطيلة ذات مقصورات جنائزية، وحلت الحجارة المنحوتة بعناية محل الحجارة غير المشكَّلة، وظهرت فيما بعد الأهرامات ذات المنحدر والمدافن الفسيحة بدلاً عن الأضرحة الضيقة المحفورة في الصخر، وكان الموتى المحنطون يدفنون فيها داخل توابيت(كندال، 1996-1998م).

ظهرت الكتابة في مدافن الملوك بيي وشباكا وشبتاكا وتانوت أماني بالإضافة إلى تهارقا. ومما يجب أن نلفت إليه النظر أن التاريخ الذي وضعه رايزنر لمقبرة الكرو هو منتصف القرن التاسع قبل الميلاد ، قد وجد تعزيزاً في البحث الذي قدَّمه تيموثي كندال بعد أن كلَّفته لجنة المؤتمر السابع للدراسات المروية بمراجعة المادة الأثرية في جبانة الكرو المحفوظة في متحف بوسطن، وقد أرسل بناءً على هذا التكليف عينات من المواد العضوية لمعامل متخصصة داخل الولايات المتحدة الأمريكية لتحديد تاريخ جبانة الكرو، وكانت النتيجة أن المختبرات أعطت تاريخاً مطابقاً للتاريخ الذي حدده رايزنر من قبل(Kendall, 1996).

تم اكتشاف مقبرة للخيول على الطرف الشمالي للهضبة على بعد مائة وعشرون متراً شمال قبر الملك بيي، بها حوالي أربعة وعشرين حصاناً مدفوناً، تتكون هذه الجبانة من أربعة صفوف متراصة، صفين في كل منهما أربعة خيول، وصفين في كل منهما ثمانية خيول. كانت قبور الخيول في مسافة متساوية تفصل بعضها عن البعض، ودفن كل حصان واقفاً ورأسه نحو الجنوب. تنسب خيول الصفين الثاني والثالث من تمائمها إلى شباكا وشبتاكا، أما خيول الصف الأخير فترجع إلى تانوت أمني، بينما تعود خيول الصف الأول لـ «بيي». تعرَّضت جُل المحتويات في قبور الخيول للنهب ولم تترك سوى بعض الشكائم وحاملات الرياش ورباط الرأس الفضية وحبات العقود والتمائم ، تشير إلى أن الخيول كانت تؤلف فرقاً من العربات الملكية ، رغم أنه لا توجد أدلة على دفن العربة مع الخيول ، خاص أن القبور كانت ضيقة جداً(Reisner, 1918).

أضحت مدافن الكرو متأثرة في معمارها كثيراً بالأساليب والرؤى المصرية في المدافن، وذلك منذ عهد الملك كوشتو، فصاروا يضعون الجثة في وضع ممتد بعد أن تحنط وتوضع في تابوت منقوش عليه صلوات باللُّغة المصرية، وأحياناً جمع الدفن بين وضعين – العنقريب والتابوت، ولم يعد اتجاه وضع الجثمان شمال – جنوب؛ بل أصبح شرق – غرب، وزوِّدت المدافن بأثاث

جنائزي احتوى على جرار كانوبية وتماثيل جنائزية «أوشابتي» وتعاويذ مصرية الصنع(فرانسيس جيوز، 2003).

تعتبر مقبرة الملك تانوت أمني (Ku.16) ومقبرة والدته كلهاتا (Ku.5) من الأمثلة والشواهد الدامغة على ممارسة التحنيط في جبانة الكرو، حيث توضح النقوش الجنائزية والنصوص على جدران حجرتي دفن كل منهما ممارسة التحنيط(Dunham, 1950). ومن الشواهد أيضاً تصوير الملك تانوت أمني في حجرة الدفن في صورة أوزيريس مضطجعاً على بطنه ويتنسم عبير الحياة من ابنه حورس، كما نجد مشهداً مشابهاً لذلك في حجرة دفن الملكة كلهاتا ، وقد صورت هي الأخرى في شكل أوزيريس المحنط وهي مسجية على عنقريبها الجنائزي(Dunham, 1950).

مزج الملك تانوت أمني ربما بين الدفن على العنقريب والتابوت ، إذْ يظهر ذلك جلياً من تصاوير الملك في غرفة دفنه فأنه وضع في تابوت ، فربما استعمل العنقريب إلى جانب التابوت مازجاً بين التقليدين المحلي والمصري معاً(Dunham, 1950).

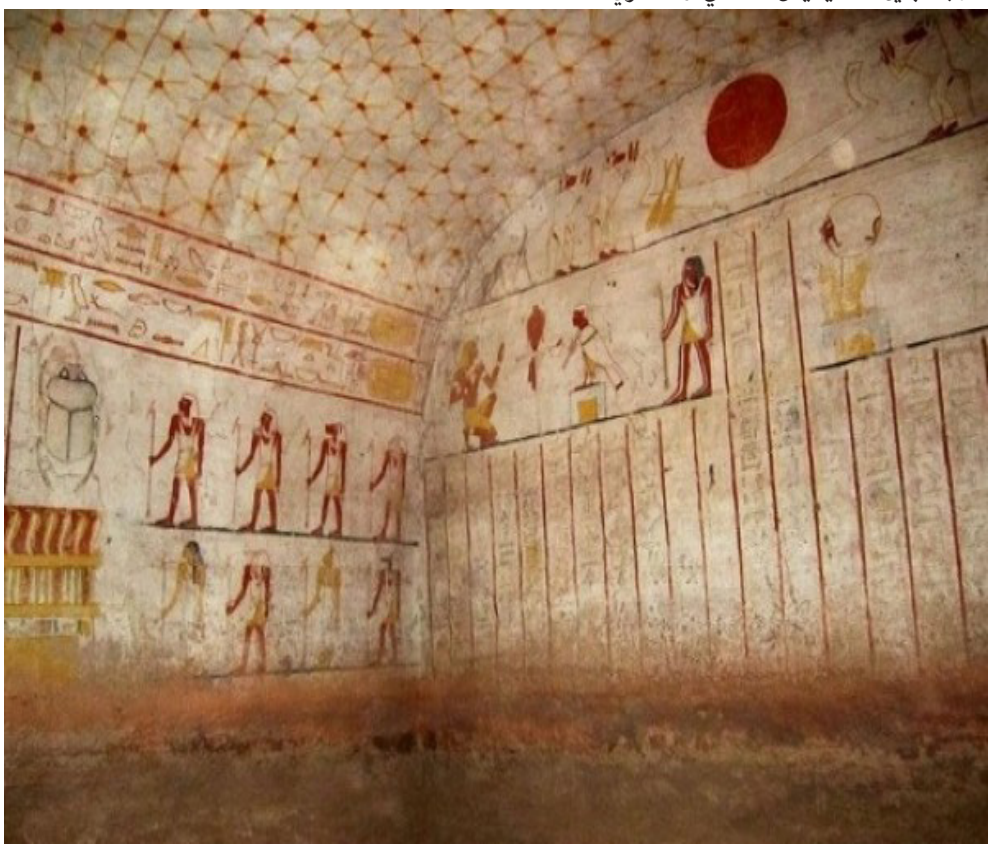

صورة لمدفن الملك تانوت أمني توضح محكمة الموتى والنصوص الدينية، تصوير الباحث

بالنظر للتصاوير التي بمقبرة الملك تانوت أمني (ku-16) يظهر الملك تانوت أمني الذي يوجد أمامه خرطوشه يحمل اسمه مرسوماً في الوسط ، ويتقدمه اثنان من أبناء حورس الأربعة أمستي في الأمام وقبحسنوف في الخلف ، ويبدو أن الملك المتوفى كان في طريقه إلي دخول قبره(Reisner, 1919). أما علي الجدار الشمالي نراه في وضع مماثل مع ابني حورس الآخرين، حعبي في الإمام ودوا موتيف من الخلف ، ويبدو الملك كأنه خارج من القبر. كتبت أسماء أبناء حورس الأربعة أمامهم ، للتمييز بينهم ، فالثلاثة الذين لهم عادة رؤوس حيوانات رسموا هنا على هيئة حيوانات لها رؤوس بشرية ، من جهة أخرى يتكرر نفس المشهد في مقبرة الملكة كلهاتا (ku-5) علي الجدارين الجنوبي والشمالي لغرفة الاستقبال. وتجدر الإشارة إلى أن ابن حورس الموجود في المقدمة يحمل دوماً الصولجان في اليد اليسرى ويمسك بيده اليمنى اليد اليسرى للشخص الذي يقوده ، بينما الآخر الموجود في الخلف يمسك بيده اليسرى اليد اليمنى للشخص الذي يتبعه ويحمل في يده اليمنى علامة الحياة. وأن أيّاً من أبناء حورس لا يتفوه بالكلام الذي يتلى عادة لتحصين الميت. كتبت بعض النصوص على جدران القبرين (ku.16 ku.5) حيث يبدو أبناء حورس الأربعة مع آلهة أخرى علي جانبي توابيت(Dunham, 1950).

مشهد من مدفن الملكة كلهاتا والدة الملك تانوتي أمني، تصوير الباحث

ختاماً لذلك يمكننا القول أن الكشف والتنقيب الذي تمَّ في جبانة الكرو على يد رايزنر هو الذي وضع الأساس لفهم وتطور الدفن الكوشي الملكي، كما وضع الأساس لتسلسل الملوك، فما توصل إليه من معلومات عن التقاليد الجنائزية وما عثر عليه من مخلفات مع الموتى ساعد في وضع تاريخ لتلك الجبانة الملكية(Dunham, 1950). فجبانة الكرو تكاد تكون الموقع الوحيد الذي قدم أكبر دليل على الاستمرارية في الحضارة الكوشية بدءاً من الحضارات السابقة لها إلى نهاية المملكة المروية.

جبانة نوري الملكية:

تقع نوري على بعد حوالي 13 كلم أعلى النيل من صنم أبو دوم في ذات الضفة اليسرى، وعلى بعد حوالي 26 كلم أعلى النيل من الكرو، وتقف أهرامات جبانة نوري في الناحية الشمالية الغربية من القرية على بعد حوالي 2 كلم. بنيت الجبانة فوق منطقتين مرتفعتين نسبياً عن مستوى سطح الأرض توازي إحداهما الأخرى ، وهي تمثل الجبانة الملكية الثانية بعد جانب الكرو ، دفن فيها كثير من ملوك وملكات مملكة كوش الثانية. وتقف أهرامات نوري في مجموعة متقاربة تحيط بها الكثبان الرملية وتتخذ من توزيعها هيئة حدوة الحصان، ويبدو أكبر الأهرامات على الإطلاق في الجبانة ظاهراً للعيان وتحيط به من الشمال والشرق والجنوب عدد من الأهرامات أقل حجماً ويبلغ عددها أربعة عشر هرماً كبيراً وأكثر من خمسة وعشرين هرماً صغيرا(الحسن، 2007).

صورة جوية لأهرامات نوري، تصوير الباحث

بعد أن كاد المكان يمتلئ في جبانة الكرو بأهرامات الملوك والملكات الذين سبقوا تهارقا وقع الاختيار على منطقة نوري التي توجد إلى الشمال من الكرو على الضفة الأخرى للنيل ، كي تكون مقراً أبدياً لتهارقا وخلفائه، وفيها بنى ذلك الملك أكبر هرم في بلاد كوش(محمد إبراهيم بكر، 1998). إن إنشاء جبانة جديدة في نوري بدلاً عن جبانة الأجداد في الكرو لهو من الأمور التي تميز بها هذا الملك الذي أراد بناء هرم كبير يليق بمقامه ، فهرمه في نوري (Nu.1) هو ليس فقط أكبر الأهرامات الموجودة في هذه الجبانة حيث يرتفع لحوالى 60 متراً بل في كل أصقاع بلاد كوش ، وقد أشار العلماء إلى خطته المعمارية وبخاصة في تخطيط غرف الدفن التي تعكس رغبته في التفرد. وبذلك يعتبر مؤسساً لهذه الجبانة(سامية بشير، 2005).

شيدت الأهرامات على أرض صخرية مرتفعة على هضبتين متوازيتين يفصل بينها منخفض، وعلى الهضبة الغربية شُيِّد هرم تهارقا، ونظِّمت الجبانة بحيث أن النساء الملكيات دُفنَّ في الهضبة الغربية، بينما قامت أهرامات الملوك على الهضبة الشرقية(عمر حاج الزاكي، 2006). استخدمت جبانة نوري على مدى ثلاثة قرون ونصف من (664 -315ق.م) أي حتى بعد أن نُقلت العاصمة إلى مروي(أيسيدور كاتسنلسون ، 2003م).

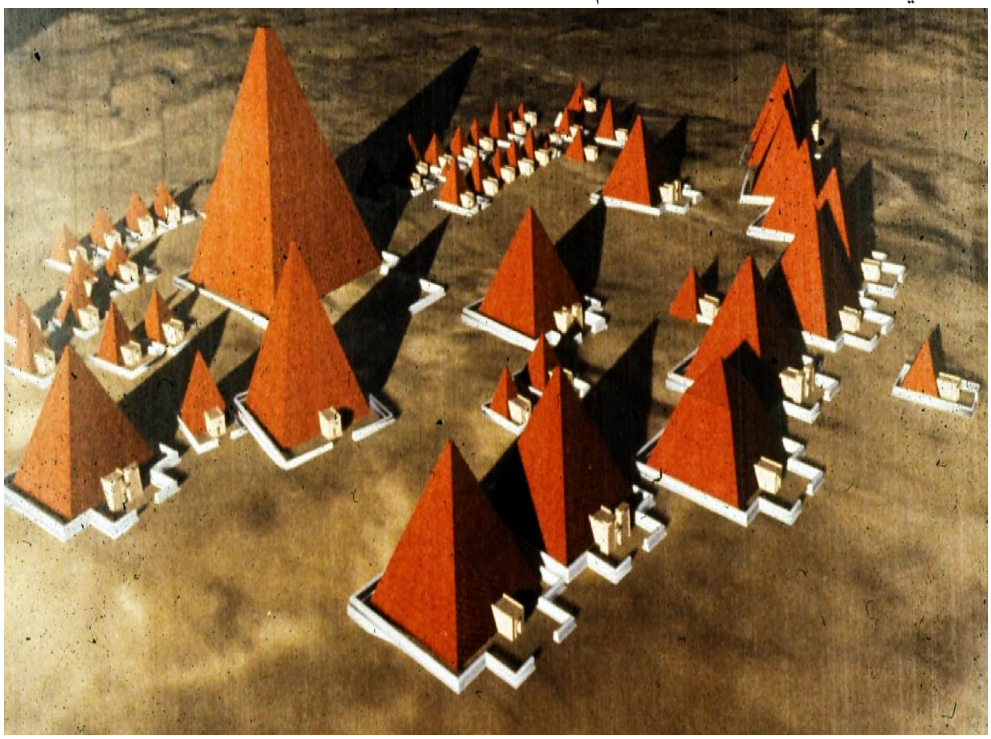

شكل يوضح توزيع الأهرامات بجبانة نوري

قام رايزنر بعمل حفائر في منطقة أهرامات نوري، وكشف عن محتويات عدد عظيم منها، وحقق معظم أسماء أصحابها، غير أنه ومما يؤسف له أن معظم الأهرام كانت قد نهبت، كما أن بعضها نظِّف تماماً على يد اللصوص، فلم يتركوا فيها شيئاً قط، هذا إلى جانب أن المقصورات الجنائزية التابعة لهذه الأهرام قد انتزعت أحجارها من أماكنها ووجدت ملقاة على الأرض، أو مستعملة في مباني حديثة نسبياً. تمكن رايزنر من معرفة أصحاب الأهرامات بواسطة الآثار التي عليها أسماءهم ووجدت داخل حجرات الدفن، خاصة الأحجار ثقيلة الوزن التي لم يكن حملها سهلاً إلى أماكن بعيدة عن مكانها الأصلي»(سليم حسن، 1956).

إن الضفة اليسرى للنيل التي بنى فيها هرم تهارقا بمثابة الضفة الغربية للنيل في مصر وهي جهة مغرب الشمس حيث يرتبط ذلك بالموت في عقائد قدماء المصريين، ونظراً للحلقة الكبرى التي يشكلها النيل كرمز للحياة في مصر، فإن جبانة نوري توجد في هذه المنطقة أي في اتجاه الشرق الذي يعني جهة مشرق الشمس وارتباط ذلك بأسطورة تجدد الحياة. أما إذا نظرنا من نوري فإن الشمس تهبط على جبل البركل لحظة تعامدها على المدار الصيفي (السرطان) وعندها يأخذ مستوى مياه النيل كل سنة في التصاعد كيما يغمر الشطئان بالفيضان، كان هذا التراصف الكوني يوجد مجموعة من العلاقات ذات الدلالات لابد أن يؤدي فيها الموت والظلمات والهزيمة إلى توليد الحياة والنور والنصر والاستقرار، سواء بالنسبة للملك المتوفى أو بالنسبة لأسرته(كندال، 1996-1998).

توصل كندال في هذا الصدد إلى نتيجة نلخصها في الآتي: نقش تهارقا عند قمة النتوء بجبل البركل نصوصاً في مكان لا يمكن الوصول إليه، ولا يمكن قراءتها من على سطح الأرض، ولكن يمكن مشاهدتها، وبما أن النصوص قد كتبت لعيون الآلهة فقط، فإن رقائق الذهب ستجعل النصوص أكثر المناطق الملفتة للنظر في الجبل، وتتجه ناحية الغرب بزاوية 160ْ بما يجعل رقائق الذهب تعكس أشعة الشمس لمناطق مختلفة في أوقات مختلفة من اليوم والسنة، ويمكن مشاهدتها من الضفة الأخرى للنيل. فظل هذا الجزء شبه المنفصل في وقت معيَّن من أيام السنة يشير مباشرة إلى موقع جبانة نوري وتحديداً إلى قمة هرم الملك تهارقا، وهذا ما ساعد كندال على أن يقترح سبب اختيار الملك تهارقا لجبانة نوري بحيث يكون هرمه مكاناً لدفنه استناداً على العلاقات المكانية والزمنية بين جبل البركل ونوري خلال فصول السنة، جدير بالذكر أن الملوك الذين دوِّنت أسماؤهم في قمة الجزء شبه المنفصل عن جبل البركل هما الملك تهارقا أول من دفن في نوري، والملك نستاسن آخر من دفن بها(Kendall, 2006).

تتميز الخارطة العامة للمدافن الملكية بنوري بثلاث ميزات : الأولى أن الهرم تتبعه مقصورة بنيت في الجانب الشرقي ، الثاني لكل هرم سور يحيط به وبالمقصورة ، الثالثة أن السلم المنحدر من الشرق يقود إلى عدد من حجرات الدفن ، تتراوح بين حجرتين وثلاث حجرات(REisner, 1918).

بنيت أهرامات نوري بنوعين من الصخور الرملية استخدم أفضلها ككساء خارجي، بينما

استعملت الصخور الأقل جودة في تكوين قلب الهرم «الحشو» ، وقد اختفى الغطاء الخارجي للأهرامات الآن تماماً ولم تبق إلا الصخور التي تكون قلب الهرم(علي قسم السيد، 2017). وصارت معظم الأهرامات عبارة عن كتل صماء من بلوكات مشذَّبة من الحجر الرملي وحشوات من كسارة الحجارة والحصى(سامية بشير، 2005). عليه يمكننا القول أن هذه الجبانة وبما أنها الجبانة الثانية بعد الكرو فإنها مكان اهتمام السائحين لمعرفة مدى التطور والتقدم الذي طرأ على عادات وتقليد الدفن الكوشي المدني الذي تجسده جبانة نوري في أبهى صورة.

الخاتمة:

في الختام يمكننا القول إنَّ عدم الاهتمام ناتج عن عدم معرفة الإنسان بمقدرات نفسه وهذا هو في حد ذاته ضعف، ثقافة الآثار لم تكن من ضمن ثقافة الشعب السوداني ولا متخذي القرار في العهود السابقة، والدولة منذ عام 2005م فطنت لأهمية الآثار وألحقتها بوزارات عديدة، لكن الدعم المقدم للآثار ضعيف إذا ما قورن مع مؤسسات أخرى، ربما لظروف البلد وعدم معرفة التراث الذي إذا وظف توظيفاً اقتصادياً يمكن أن يغطي كل النفقات. لكننا لا زلنا في مرحلة الحماية ومرحلة الحفاظ ومرحلة رفع وعي المواطنين أنفسهم، وهذا واضح في التعديات في الأراضي السكنية والزراعية والمشروعات الأخرى للأراضي التي بها مواقع أثرية، بالتعدين الأهلي للذهب. ثم تأتي بعد ذلك مرحلة البنيات التحتية للسياحة والتنمية الشاملة لمواقع الجذب السياحي وبعد ذلك تكثيف الترويج الإعلامي للسياحة بكافة الوسائل الحديثة.

النتائج:

من خلال ذلك نستنتج الآتي:

1. يتمتع السودان بإرث حضاري وافر في مختلف النواحي (آثاري، طبيعي، ثقافي، ديني...) وعليه إذا ما وظِّفت هذه المواقع وتم إعدادها الإعداد الجيد للسياحة فإنها تسهم بصورة فاعلية في رفد الاقتصاد الوطني.
2. تتمتع الولاية الشمالية – على وجه الخصوص – بعدة مقومات سياحية، وتمثل المواقع الآثارية أهمها على الإطلاق، فهذه المواقع يقصدها الزوار من خارج السودان كل شتاء، فهي جاذبة لكل سائح لما تحتويه من صروح وأبنية وأضرحة ومعابد ....الخ.
3. تتميز محلية مروي باحتضانها لعدد من المواقع الأثرية، فهذه المواقع إذا تمَّ تأهيلها وتهيئتها ستغني المحلية عن المركز والولاية في مجال الدعم المادي.
4. يشكل ضعف الوعي بالإرث الثقافي لدى المواطنين المحليين عقبة كؤود في التطور، إذ يقومون بصورة أو أخرى بضياع هذا الإرث وبالتالي طمس للهوية.

5. تعاني المواقع الأثرية من الاهتمام إذ أنها لم تجد الحماية الكافية والصيانة والترميم اللازمين لتهيئتها للسياح غم وجود عدد مقدر من السياح.
6. إن وجود مرشدين سياحيين بالمواقع يسهل كثير جداً من مسألة التعريف بهذه المواقع، وبالتالي يحدد المرشد حركة السير وطريقة الدخول والخروج منه بصورة آمنة تحفظ الأثر من التهديد.

التوصيات:

1. المساهمة في إعداد المعارض والأفلام الوثائقية عن مواقع الجذب السياحي الآثاري.
2. الترويج الإعلامي من خلال الأماكن التي يرتادها السياح عبر الوسائل التقنية الإلكترونية وتوفير المعلومات عبر المواقع الرسمية ومواقع التواصل الاجتماعي والقنوات الفضائية المهتمة بالسياحة الآثارية بالولاية الشمالية عالمياً.
3. وضع السياسات وخطط العمل التنفيذية التي تعمل على تطوير وتنمية السياحة الآثارية في الولاية الشمالية من أجل الوصول إلى تنمية سياحية مستدامة.
4. توعية المجتمع المحلي في المناطق السياحية بالفوائد الايجابية للاستثمارورفع الوعي لدى المواطنين بأهمية الموروث الثقافي (الآثاري والتاريخي) ليكونوا شركاء في المحافظة عليه.
5. حماية المواقع الأثرية من التعديات السكنية والزراعية وتسجيلها لدى سلطات الأراضي والاهتمام بالمباني التاريخية.
6. إدراج مناطق الجذب السياحي ضمن خطط التنمية الولائية والقومية لتحظى بنصيب من البنى التحتية.

المصادر والمراجع:

أولاً - العربية

(1) أشرف صبحي عبد العاطي(1999م)، السياحة صناعة للمستقبل، دار مكتبة الإسراء، طنطا.

(2) الأمين عثمان شعيب(2022م)، «النشاط المعماري الديني التعبدي للملك تهارقا في بلاد كوش»، مجلة القلزم للدراسات الآثارية والسياحية، العدد الرابع، مارس.

(3) أيسيدور كاتسنلسون ، «البحث الآثاري في النوبة الشمالية والسودان» مجلة الآثار السودانية، العدد الأول، أغسطس 2001م، ترجمة أسامة عبد الرحمن النور، http:// www.arkamani.org.

(4) أيسيدور كاتسنلسون ، 2003م ، «البحث الآثاري في النوبة الشمالية والسودان» مجلة الآثار السودانية ، العدد الأول ، أغسطس 2001م ، ترجمة أسامة عبد الرحمن النور ، http://www.arkamani.org .

(5) تقارير المسح الشامل لولاية الخرطوم 1997م، وزارة الثقافة والإعلام والسياحة والآثار، الخرطوم، المكتبة.

(6) تيموثي كندال، «ملوك الجبل المقدس(1996-1998م) نباتا وأسرة الكوشيين» في معرض السودان ممالك على النيل، إشراف دييتريش فيلدونغ ، ترجمة بدر الدين عروكي ، باريس.

(7) جمال جعفر عباس الحسن، مجلة الدراسات الإنسانية، كلية الآداب والدراسات الإنسانية، جامعة دنقلا، العدد الثاني، ديسمبر 2009م.

(8) الحسن أحمد محمد الحسن (2007م) آثار الملك تهارقا في وادي النيل (690-664ق.م) ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الخرطوم.

(9) سامية بشير دفع الله (2005م) تاريخ مملكة كوش، دار الأشقاء للطباعة والنشر، الخرطوم بحري، ط1.

(10) سليم حسن ، مصر الفرعونية ، ج11 ، مطبعة جامعة القاهرة ، 1956م ، ص265.

(11) عباس سيد أحمد محمد علي، جامعة عبد اللطيف الحمد التكنواوجية مركز دراسات الحضارات السودانية، مقابلة يوم الأربعاء 2022/10/12م، الساعة 11 صباحاً.

(12) العباس سيد أحمد محمد علي وعبد القادر محمود عبد الله(2010م) «أصل الأسرة الخامسة والعشرين لمصر كما تعكسه الجبانة الملكية السودانية في الكرو» مجلة الدراسات الإنسانية، جامعة دنقلا، كلية الآداب والدراسات الإنسانية، العدد الثالث، يناير.

(13) عفراء عثمان عبد الله (2010م) نحو تأهيل سياحي لموقع جبل البركل ، رسالة ماجستير غير منشورة ، دنقلا ، جامعة دنقلا ، كلية الآداب.

(14) علي أحمد قسم السيد (2017م) الأهمية الأثرية والتاريخية لجبانة الكرو الملكية، ترجمة سارة حسن محمد إسماعيل البيلي، مطبعة جامعة الخرطوم.

(15) عمر حاج الزاكي، (2006م) مملكة مروي التاريخ والحضارة، مكابع الصالحاني، وحدة تنفيذ السدود، ط1.

(16)16. فرانسيس جيوز (2003) «عادات الدفن في وادي النيل الأعلى: لمحة عامة» مجلة الآثار السودانية، العدد الرابع، فبراير، ترجمة أسامة عبد الرحمن النور http://www.arkamani.org.

(17) فؤاد رشيد سمارة(2001م) تسويق الخدمات السياحية، سلسلة كتب السياحة والفندقة، دار المستقبل للنشر والتوزيع، الأردن، عمان.

(18) كباشي حسين قسيمة(2012م) التنمية السياحية المستدامة – أسس ومبادئ عامة، اعتزاز للطباعة، الخرطوم، ط1.

(19) محمد إبراهيم بكر (1998م) تاريخ السودان القديم، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.

(20) محمد العطا محمد عمر، صناعة السياحة وأهميتها الاقتصادية، مجلة الدراسات الإنسانية ، جامعة دنقلا، العدد الخامس، 2011م، ص78.

(21) منى عبد اللطيف(1989م) التخطيط السياحي، مجلة البحوث السياحية، قسم البحوث والإحصاء، الخرطوم.

(22) مؤتمر تطوير قطاع السياحة، ورقة وزارة السياحة والآثار والحياة البرية، تطوير السياحة بالولايات الخمس، الخرطوم، قاعة الصداقة، أبريل 2017م.

(23) نسرين لحام رفاق(2007م) التخطيط السياحي للمناطق التراثية باستخدام

تقييـم الآثـار البيئيـة، دار النيـل للنـشر والطبـع والتوزيـع، القاهـرة.

(24) نعـمات عمـر عبـد الجبـار (1989م) مظاهـر التمصـير عنـد ملـوك الأسرة الخامسـة والعشريـن، رسـالة ماجسـتير غـير منشـورة، جامعـة الخرطـوم.

(25) وليـام آدمـز (2005م) النوبـة رواق إفريقيـا، ترجمـة محجـوب التجـاني محمـود، مطبعـة الفاطيـما، مـصر، ط2.

ثانياً – الأجنبية:

(26) Lea. I, 1992., Tourism and development In the third world. Longman group. London.

(27) Shinnie, P.L., 1967: Meroe a Civilization of the Sudan, London

(28) Reisner. G.A., 1917: "The Barkal Temples in 1916", JEA, Vol. 4. London, pp 213227-.

(29) Budge. W., 1907 : A History of Ethiopia, Vol. 1, London.

(30) Dunham. D. 1970 : The Barkal Temples. Museum of fine Arts. Boston.

(31) Kendall. T., 1996 : Excavations at Gebel Barkal. Report of the Museum of Fine Arts, Boston, Sudan Mission. Preprint from Kush, 17.

(32) Kendall, T.: Jebel Barkal History and archaeology of Ancient Napata. National corporation Antiquities and Mueseums (NCAM) Sudan. Temples and Palaces. Pp. 12-. P.2. http://www.jebelbarkal.org/index.php?option=com_content&view=article&id=52&Itemid=41

(33) Griffith. E.L. 1922: Oxford Excavation in Nubia. LAAA Vol,9. Liverpool.

(34) Dunham. D., 1953: Form Tumulus to pyramids and back Archaeology. Vol. 6. Boston. P.88

(35) Adams. W.Y., 1984: The first Clonial Empire, Egypt In Nubia 3200-1200BC, CSSH. Vol. 26. No. 1, University of Kentucky. P. 87.

(36) Arkell. A.J., 1961: A History of the Sudan From the Earliest Time to 1821. Second Edition. London.

(37) Trigger. B.G., 1967: Nubia under the Pharaohs. Thames and the Hudson. London.

(38) Kendall T. 1996 : "The Origins of the Napatan State A Paper Presented In the 7th International Conference" for Meroitic Studies, Berlin.

(39) Reisner. G.A., 1918: "Preliminary Report on the Harvard-Boston Excavation at Nuri; The Kings of Ethiopia After Tirhaqa" Harvard African Studies, Veria Africana, Vol. 2, pp 164-.

(40) 40. Dunham. D., 1950: The Royal Cemeteries of Kush. Vol. 1. El Kurru, Harvard. University Press, Cambridge..

(41) Reisner. G.A., 1919: "Discovery of the Tomb of the Egyptian 25th Dynasty at El- Kurru in Dongola Province" SNR, Vol. 2.

(42) Kendall. T., 2006: Why Did Taharqo Build his Tomb at Nuri? An unpublished Paper Presented in the 11th Conference of Nubian Studies, Warsaw.

(43) Dunham. D., 1955 : Royal Cemetery of Kush. Nuri. Vol. 2. Boston.